مقاييس تعليمية اللغة العربية من منظور التفكير اللغوي للسانيات العربية واللسانيات الحديثة دراسة مقارنة تقابلية

الدكتور : أحمد مداني
madaniprof@hotmail.fr
جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف - الجزائر

الملخص :

إذا كانت التعليمية "sdidactic" هي الدراسة العلمية لطرائق التدريس و تقنياته و لأشكال تنظيم مواقف التعليم التي يخضع لها المتعلم قصد بلوغ الأهداف المنشودة على المستوى العقلي و المعرفي أو الوجداني أو الحس الحركي المهاري، فإن دراستها هذه تحتاج إلى ضوابط وأسس نظرية تنطلق من التفكير اللساني و اللغوي الذي أفرزته الدراسات اللغوية عند علماء التراث أو ذلك التنظير العلمي للغة والذي جاء إثر ظهور الأفكار اللسانية الحديثة في أوروبا، لا سيما أفكار اللساني فرديناند دي سوسير " f. de-ssausure ". الذي ساهم بقسط كبير في بلورة نظرة علماء اللسان إلى اللغة، ولم يكن هو الوحيد في هذا الاتجاه بل هناك عدد كبير من اللسانيين الذين أضافوا إلى فكره أفكارا، صارت بعد ذلك نظريات لسانية لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها في أي بحث يمس اللغة أو يتعلق بأحد علومها، حيث نجد تلك المقولات اللسانية حاضرة في كل دراسة لغوية فكيف إذا تعلق الأمر بتعليم اللغة نفسها، وعليه فإن معلم اللغة يجب عليه أن يستعين بما قدمته الدراسات اللغوية العربية القديمة واللسانيات الحديثة، كما لا يسعه أن يتجاهلها أثناء أداء دوره التعليمي مع المتعلمين وأن يحاول تطبيق أو على الأقل مراعاة تلك النظريات أو الأفكار اللسانية التي قررها علماء اللسانيات العربية كأمثال الجاحظ أو ابن جني أو عبد القاهر الجرجاني أو ابن خلدون وغيرهم، ويربط بينه وبين ما أنتجه علماء اللسانيات الحديثة، خاصة أن أعلام اللسانيات العربية في التراث اللغوي القديم، يعتبرون الرواد المؤسسين للعلوم اللغوية منذ القدم ، سواء أ تعلق الأمر بالعلوم الأدبية أو النقدية، المتعلقة بنقد الشعر و النثر، كالموازنة بين أنواع الشعر وطبقات الشعراء والمفاضلة بين فنون الشعر وفنون النثر، أو طرح قضايا نقدية كقضية جدلية اللفظ والمعنى، أم كان الأمر مرتبطا بأفكار لسانية صرفة، كطرحهم لفكرة النظم التي مهدت السبيل أمام عبد القاهر الجرجاني ليتبنى هذه الفكرة ويجعلها نظرية قائمة بذاتها، كما أن أفكارهم تميزت بالترابط حيث إن كل فكر يخدم الفكر السابق ويتمم علّق به من نقص، فلولا أفكار الجاحظ مثلا لما استطاع الجرجاني أن يصنع شيئا، ولعل تأثيرهم اللغوي هذا، تجاوز عصرهم إلى عصر اللسانيات الحديثة، إذ نجد مقولاتهم اللسانية تتقاطع مع المقولات اللسانية التي نوصل إليها علماء اللسانيات الحديثة، إذ وجد الباحثون في حقل علم اللغة الحديث أن مقولاته تتقاطع مع تلك التي توصل إليها اللسانيون المعاصرون، مما يدل على أن منظورهم لعلوم اللغة بصفة عامة، لم يكن تعوزه الفكرة اللغوية الصحيحة بقدر ما كان يفتقر إلى المصطلح الدقيق،ومن ثم فقد طرحوا قضايا لغوية يمكن مقارنتها بنظائرها لدى اللسانيين الحداثيين والاستفادة منها في حقل تعليمية اللغات عامة وتعليمية اللغة العربية خاصة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استنادا إلى هذا السياق، يمكن طرح الإشكال الآتي : ما هو المنظور اللساني للتنظير اللغوي عند علماء اللسانيات العربية ؟ وما هي تلك التقاطعات اللسانية بينه وبين التفكير اللساني الحديث ؟ وما هي إمكانية استفادة حقل تعليمية اللغة العربية من ذلك التفكير ؟

لعل هذه الإشكالات جديرة بالطرح وحقيق أن أجعلها استهلالا، لأتحدث من خلالها في هذا البحث الموجز عن المباحث الآتية :

1- مقاييس وضوابط حقيقة اللغة من منظور اللسانيات العربية و اللسانيات الحديثة .
2- مقاييس أنواع اللغة في التفكير اللساني عند علماء التراث العربي وعلماء اللسانيات الحديثة .
3- ضوابط وظائف اللغة بين التفكير اللغوي عند الجاحظ و النظريات اللغوية اللسانية الحديثة .

1- مقاييس وضوابط حقيقة اللغة من منظور اللسانيات العربية و اللسانيات الحديثة .

إن الأفكار اللسانية عند علماء اللغة العربية القدامى كثيرة ومتعددة، لا يمكن الاستدلال بها على وجه التفصيل، لذا كان لزاما على أي باحث أن يأخذ نموذجا لسانيا واحدا، تسهيلا للبحث والسير مع مستلزمات الطرح العلمي، ولا شك أن الجاحظ من الرواد الذين تفطنوا للمسائل اللسانية المتعلقة بماهية اللغة العربية وعالج قضايا تختص باللسانيات الاجتماعية والنفسية وغيرها، وطرح مقاييس تتعلق يمكن أن تستفيد منها تعليمية اللغة العربية، كأمراض الكلام والملكة البيانية، وهكذا يمكن القول بأن من المسلمات في ميدان المعرفة اللسانية أن الجاحظ ممن أنتجوا المعرفة اللغوية في عصره بمختلف فروعها، وعلى الرغم من هذا السبق إلى إنتاج المعرفة ، فإن هذا السبق لم يكن خالصا له وحده دون سائر جهابذة اللغة في عصره، أو في العصور التي خلت قبله أو جاءت بعده، أمثال سيبويه (ت182ه) وابن جني (ت392ه) والجرجاني (ت471) وغيرهم ممن يضيق حيز الكتابة عنهم، فحينما نأتي إلى علماء التراث نجدهم طرحوا إشكالية تبدو سهلة في الظاهر لكنها عويصة وصعبة في في الباطن، إذ يصعب تحديدها، لأنها تمثل المنطلق الذي يحدد المرتكزات اللسانية التي تنبني عليها كل نظرية لسانية قديمة أو حديثة، وهذه الإشكالية، متمثلة في السؤال الآتي : ما هو مفهوم اللغة ؟

هذا الإشكال حرصت اللسانيات الحديثة على طرحه أيضا، وكان هذا الطرح قد أدى إلي اختلاف في التعريفات المتعلقة باللغة، ومن ثم خلق تباينا بين المدارس اللسانية، وفي هذا المجال نجد تعريف ابن جني في صدارة هذه التعريفات، إذ يقول عن اللغة إنها : " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "[1]، ونجد ابن خلدون وهو من علماء القرن الثامن الهجري، طرح هذه القضية قائلا : "...هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها و هو اللسان، وفي كل أمة بحسب اصطلاحهم، وكانت الملكة الخاصة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها أبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني من المجرور أعنب المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد إلا في لغة العرب "[2]، وهذه الحدود الدقيقة التي وضعها هؤلاء العلماء للغة نجد الجاحظ قد سبق إليها، حين وضع للغة حدا جعله لا يتجاوز مفهوم البيان، وفي ذلك يقول : " والدلالة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بذلك نطق القرءان، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم " [3]، وإذا حققنا في هذا القول نجد الجاحظ ينبه إلى مفهوم أبعد من اللغة في حد ذاتها، إذ يراها مظهرا إنسانيا تشترك فيه فئات المتكلمين بجميع لغاتهم وبمختلف أجناسهم، وبها تتحقق مقاصدهم المختفية في صدورهم المتصورة في أذهانهم، وعلى حسب تفاوت قدراتهم على الإبانة عن المعاني المختلجة في نفوسهم، تتفاوت درجات لغاتهم في تأدية المعاني، وبذلك يمكن تلخيص أهم الأفكار اللسانية التي ركز عليها في هذا القول، والتي يمكن أن يراعيها معلم اللغة العربي في مهمته الديداكتيكية، هي:

أ- اللغة ظاهرة إنسانية تشمل جميع الألسنة البشرية، وهي مرادفة لمصطلح البيان .

ب- اللغة أداة لبيان مقاصد المتكلمين بمختلف أجناسهم، وذلك في قوله " الدلالة على المعنى الخفي هو البيان".

ج- اللغة وسيلة للتفاضل بين أنواع اللسان البشري من حيث الإبانة عن المعاني، لقوله: " وتفاضلت أصناف العجم ".

د- مراتب اللغة في الإبانة تتحكم فيها الظاهرة الصوتية والاجتماعية و الدور الوظيفي للغة، لقوله : " تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم " .

وبعض هذه الأفكار اللسانية اتجاه اللغة، قد تبناها علماء اللسانيات العربية بعده، ولنأخذ مثالا على ذلك، تعريف ابن جني للغة، حيث نجد ابن جني يقرر ثلاث حقائق لسانية حول اللغة، لا يمكن أن يتغافل عنها رجالات التعليمية، وهي :

أ- صوتية اللغة :

أكد الجاحظ على مصطلح البيان، والبيان لا يكون إلا باللسان أولا، وهذا ما يقصده الجاحظ بدليل أنه، ركز بشكل واضح على لفظة " نطق "، وكلمة نطق ما هي إلا تعبير عن تلك الأصوات الدالة على معنى معين عند المتكلمين بشتى أجناسهم، وإن كان ابن جني عبر عن هذه الخاصية بصفة مباشرة بكلمة " أصوات "، فإن الجاحظ ذهب بشكل أعمق من إعطاء الأهمية إلى مجرد الأصوات، وذلك بتنبيهه على ما يؤوله إليه الصوت أو ما يتحول إليه كل صوت من مجرد حروف خالية من الدلالات إلى أصوات دالة، ذات معان ودلالات متفاوتة في حسن البيان، يجعل الكلام متفاضلا بين كل صنف بشري .

هذا الجانب المهم من خصائص اللغة ،هو ما تؤكد عليه اللسانيات الحديثة، ومن الذين أكدوا على هذا الجانب هنري سويت (h . sweet) وذلك حين جعل أفكار المتكلم لا تكون إلا بواسطة الأصوات، لذا فاللغة عنده "هي التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الأصوات الكلامية المؤلفة من الكلمات " [4]

ب- اللغة ظاهرة إنسانية :

لاشك أن هذه الخاصية منحها اللسانيون في الدراسات الحديثة أهمية خاصة، حيث إنهم نظروا إلى اللغة على أنها صفة مشتركة بين البشر، فقرروا دراستها من هذا المنظور العام، ففكروا في إيجاد علم يدعى اللسانيات العامة، يقول أندري مارتيني، (André martinet) : " اللسانيات هي الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري " [5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ج- علم وظائف الصوت :

لم يعتبر الجاحظ اللغة مجرد أصوات بل اعتبرها أصواتا مبينة لتلك الدلالات الخفية لدى كل متكلم، ولاشك أن هذا هو ما انتبه إليه علم اللغة الحديث / حيث دعا إلى الاهتمام بوظيفة الصوت، وهو ما اصطلح عليه بالفونولوجيا (phonologie)، علم وظائف الأصوات .

د- اجتماعية اللغة:

عندما أشار إلى الجاحظ إلى العرب و العجم، فكأنما يريد أن اللسان الذي يكون فيه التفاضل في الكلام، وأن ذلك اللسان عندما يعتريه التفاوت في درجة البيان العالي والأسلوب الرفيع، لا يلحقه بصفته لسانا مستعملا، إنما يعتري طرائق التعبير عند المتكلمين، وأن هؤلاء المتكلمين إنما يستعملون ألفاظا اصطلحوا على استعمالها، ومن ثم فإن ذالك اللسان أو ذاك هو من وضع أفراد المجتمع، وبالتالي فإن اللغة هي اصطلاح من قبل أفراد المجتمع، وهذا ما نبه عليه فتدريس (vendrais) عندما قال : " في أحضان المجتمع تكونت اللغة ووجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم ... فاللغة وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات وقد دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعي"[6].

لذا يجب على كل من تصدى لتعليمية اللغة العربية أو أي لغة أخرى أن يأخذ بهذه الحقائق اللسانية، فهي صالحة للتطبيق،ومن دونها لا يمكن الوصول إلى الأهداف التعلينية المنشودة.

2- مقاييس أنواع اللغة في التفكير اللساني لدى علماء التراث العربي و عند علماء اللسانيات الحديثة .

ولنأخذ أيضا في هذا المبحث فكر الجاحظ أنموذجا ،حيث إن من النظريات اللسانية التي توصل إليه الجاحظ، والتي ينبغي استغلالها في تعليمية اللغة العربية بصفة خاصة، هو أنه أشار من خلال كتابه البيان والتبيين إلى أن اللغة لا تقتصر على نوع واحد، وإنما تتعدى إلى أنواع يستعملها أفراد المجتمع اللساني الواحد، يقول ما نصه : "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة و النصبة هي الحال التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات "[7]، ومن هذا القول ندرك أن الجاحظ وضع اللغة ذات وظيفة دلالية، ومن خلال هذه الدلالات بين أن اللغة لا تنحصر في نوع واحد من حيث الدلالة، وذلك حين يشرحها قائلا : " فد فلنا في الدلالة باللفظ، فأما الإشارة فباليد و بالرأس و بالعين و الحاجب و المنكب إذا تباعدا الشخصان وبالثوب و السيف، وقد يتهدد رافع السيف و السوط فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا و يكون وعيدا و تحذيرا ..وأما الخط فما ذكره الله عز وجل في كتابه من قضية الخط و الأنعام بمنافع الكتاب ...وأما العقد و هو الحساب دون اللفظ و الخط، فالدليل على فضيلته و عظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل " فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا و الشمس و القمر حسبانا ذلاك تقدير العزيز العليم "، ...وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، و المشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في السماوات والأرض وفي كل صامت وناطق و جامد ونام ومقيم وظاعن، ولذلك قال الأول: سل الأرض فقل من شق أنهرك، وغرس ثمارك، وغرس أشجارك، وجني ثمارك، فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا "[8].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا تفحص الباحث هذا القول، يستطيع أن يطلع على فكر الجاحظ ونظرته إلى أنواع اللغة، وذلك أنه قسم اللغة إلى الأنواع الآتية وهي :

1- اللفظ : اللغة المنطوقة .
2- الخط : اللغة المكتوبة .
3- العقد : لغة الحساب .
4- الإشارة : لغة العلامات .
5- النصبة : اللغة الدالة على الحال .

وإذا تأملنا ما قاله علماء اللسانيات الحديثة، في أنواع اللغة نجد هم لايبعدون عما قاله الجاحظ في هذا المجال، فهم يركزون على أن اللغة نوعان، لغة منطوقة ولغة مكتوبة، وأن الأهمية اللسانية متوجهة إلى اللغة المنطوقة، لأن أصل اللغة منطوق وليس مكتوبا، كما أن الظواهر الصوتية كالتنغيم و التبر و الإدغام والإشمام و الروم والغنة وغيرها لا يمكن إلا أن تظهر في اللغة المنطوقة، لذا جعلها الجاحظ في مقدمة الدلالات، وهذا ما تبنته اللسانيات الحديثة حين اهتمت باللغة المنطوقة دون المكتوبة، لأن القاعدة عندهم أن أصل اللغة منطوقة وأن الكتابة جاءت في فترة متأخرة، لذا اهتمت باللهجات واللغات القديمة التي يتحدث بها أهلها دون كتابة، ومن اللسانيين الذين اهتموا بهذا الجانب فرديناند دوسوسير (f. désaussure)، حين أشار إلى ثنائية المنطوق و المكتوب، وأكد بأن اللغة هي نظام من العلامات اللسانية، ووافقه في ذلك فندريس الذي يقول : " وهكذا نرى أن الاستعمال مع التقاليد في تأكيد اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة، و الواقع أنهما لا يختلطان أبدا، ومن الخطأ أن نظن أن المكتوب يعتبر تمثيلا دقيقا للكلام"[9] .

هكذا يتقرر لدى الجاحظ وغيره من اللسانيين أن الغة منطوقة في أصلها وليست مكتوبة، ومن هنا يمكن استغلال هذا المبدأ بأن يبدأ في تعليم اللغة بإتقان مخارج الحروف وصفاتها ثم ينتقل النتعلم إلى نطق الكلمات و الجمل والعبارات، ولم يكتف الجاحظ بهذا بل أشار أن للغة وظائف، وهذا ما أكدت عليه اللسانيات الحديثة .

3- ضوابط وظائف اللغة بين التفكير اللغوي عند الجاحظ و النظريات اللسانية الحديثة:

يقول الجاحظ في هذا الموضوع : " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الخطاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ماكان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل و السامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام فذلك وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[10]، وحينما نتأمل هذا القول نعلم أن الجاحظ منح اللغة ميزة تتمثل في أن لها وظائف، ومن تلك الوظائف، أنها ذات وظيفة اتصالية وذات وظيفة تعبيرية، لأنه يتصور علاقة تواصلية بين القائل و السامع، وأن التعبير عن المعاني بينهما يقوم بين المتكلم الذي يجب أن يكون كلامه مقيدا بعملية الإفهام والمتلقي الذي ينبغي أن يكون تلقيه للخطاب مشترطا بعملية الفهم، ثم بين أن كل وسيلة تعبيرية يسلكها المرسل للرسالة الخطابية، إنما الشأن فيها أن تكون مبلغة للخطاب مؤدية للمعنى المقصود، واعتبار اللغة أنها ذات وظيفة تواصلية، من المبادئ التي يجب اعتبارها من منظور اللسانيات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحديثة، ومن اللسانيين الذين اعتنقا هذا المبدأ هيرمان بول (h.paul) حين يقول : " وظيفتها الأساسية هي كونها دائمة وسيلة لنقل أو توصيل شيء من الأشياء "[11]، لكن محمد السعران لا يقتصر منظوره إلى وظيفة اللغة بهذا الرأي فقط، مبينا "أن حديث النفس أو المونولوج، إنما هو صورة من صور التوصيل اللغوي أيضا حيث إن المتكلم و السامع هما يتفقان في شخص واحد يمكن أن يقال عنه أنه يتصل بنفسه "[12] ، ويرى اللساني برتراند رسل أن " للغة وظيفتان رئيستان التعبير والتوصيل أي أن التعبير عن الأفكار وما إليها من توصيل هذه الأفكار إلى الآخرين "[13].

نتائج البحث :

1- على معلم اللغة العربية أو غيرها أن يستعين بما تقدمه اللسانيات العربية القديمة أو اللسانيات الحديثة .

2- وجوب معرفة خصائص اللغة العربية لدى معلم اللغة العربية، ومن تلك الخصائص صوتية اللغة و أن اللغة اجتماعية وأنها تتميز بخاصية التعبير عن الأفكار.

3- الانطلاق في تعليم اللغة العربية من المستوى الصوتي لأن اللغة منطوقة في أصل نشأتها وليسن مكتوبة.

4- استغلال نظرية أنواع اللغة لدى معلم اللغة العربية، حين يباشر تعليم طبقة ذي الحاجات الخاصة، أو أصحاب العاهات أو أمراض التكلم، حيث يمكن أن يستغل تلك الأنواع في إيصال المعنى للمتعلمين .

5- على معلم اللغة العربية الاعتداد بما توصل إليه اللسانيون في الدراسات العربية القديمة، وعدم الاقتصار على نظريات علماء اللسانيات الحديثة، لأن في فكرنا اللغوي القديم أفكار تعين على تعليم أو نعلم اللغة العربية خاصة لغير الناطقين بها.

هوامش البحث:

[1] ابن جني ، الخصائص ، تح : محمد علي النجار ، دار الكتب القاهرة ، ط1 ، 1956 ، ج1، ص33

[2] ابن خلدون ، المقدمة ، دار الأرقم ، د ط ، ص201

[3] الجاحظ ، البيان والتبيين ،مطبعة التأليف ، القاهرة ، ط3، ج1، ص 76

[4] **ستيفان اولمان** ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر، دط ، د ت ، القاهرة ، 1962، ص12

[5] **André martinet élément linguistique générale. 5 édition Mehdi tizi ouzou 2013 p 137**

[6] فندريس ، اللغة ، تر: عبد الحميد الدواخلي ، و محمد القصاص ، القاهرة ، 1950، ص 35

[7] البيان و التبيين ، ج1، ص 165

[8] المرجع نفسه ، ص 70

[9] فندريس ، اللغة ، مرجع سابق ، ص 40

[10] البيان والتبيين ، ج1 ، ص 167

[11] ستيفان اولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ص12

[12] محمد السعران ، علم اللغة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1962، 77/76

[13] ستيفان أولمان ،دور الكلمة في اللغة ، مرجع سابق ، ص12

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com